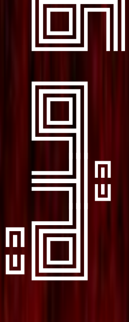
جابر العمر

محاضرات حول القومية العربية

- نظرات في القومية العربية
- القومية العربية في التاريخ الحديث
- محمد مبدع القومية العربية











منشورات الطليعة تونس 2002



منشورات الطليعة العربية في تونس

دراسات في القومية العربية

نظرات في القومية العربية

جابر العمر
دمشق 1947

- ١ -

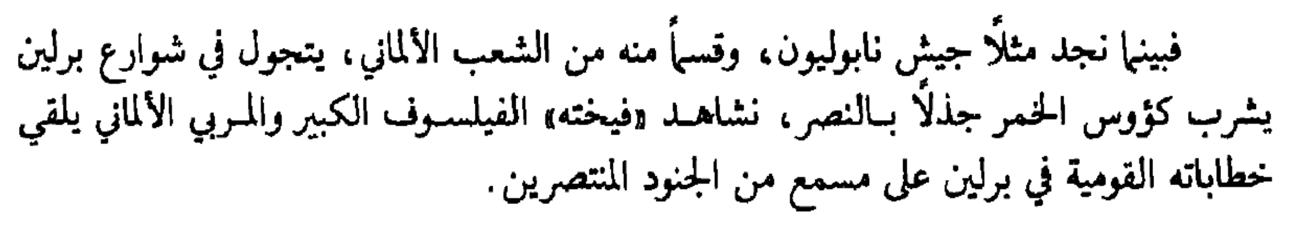
في هذا الظرف الدقيق الذي تمر به أكثر الأقطار العربية يحسن بالقوميين من العرب أن يمعنوا النظر في فكرتهم القومية ويضعوا لها الأسس العلمية التي تتطلبها القومية العربية والتي سارت عليها أكثر قوميات العالم.

إننا نعيش يا سادة في وسط عاصفة اجتماعية وسياسية واقتصادية، وسوف تستمر هذه العاصفة إلى وقت طويل كما يظهر لنا، لذلك لسنا بحاجة، وليس من المصلحة العامة أن نضل في هذه العاصفة، وعلينا أن نسير على الطريق نفسه الذي سارت عليه بعض القوميات الأوروبية.

ففي وسط عاصفة نابوليون ضد الدولة البروسية، بدأ الفلاسفة الألمان يفكرون ملياً في أسباب خسارة بروسيا والطرق العملية السريعة التي ستنقذ بروسيا الألمانية. فكرسوا جهودهم وجهادهم لهذا الهدف القومي، وبدأ القوميون الألمان يتعاونون لإنقاذ هذا القطر الألماني الذي اعتقدوا فيه أنه سيحقق لهم الوحدة الألمانية.

رأينا العسكريين منهم يهرعون إلى بروسية الشرقية حيث المحل الذي فر إليه قيصر بروسيا يضعون أنفسهم تحت تصرّفه لإنشاء جيش بروسي على الطرق الحديثة.

كذلك نجد أن الفلاسفة والعلماء لم يكتفوا بما قاموا به من خدمات، بل صرفوا جهوداً تفكيرية كبيرة للبحث عن سبب هذه الفاجعة وعن الطرق الثقافية والعلمية التي ستخلق الإيمان القومي في النفوس لتكون حصناً منيعاً ضد أمثال هذه المصائب.



فبينما نجد مثلاً جيش نابوليون، وقسماً منه من الشعب الألماني، يتجول في شوارع برلين يشرب كؤوس الخمر جذلاً بالنصر، نشاهد «فيخته» الفيلسوف الكبير والمربي الألماني يلقي خطاباته القومية في برلين على مسمع من الجنود المنتصرين.

كذلك نجد العالم الألماني يان يرجع من عند قيصر بروسيا ويؤسس ملاعب الرياضة للأحداث ليخرّج للجيش البروسي في وقت قصير جيلاً من الشباب المدرب يستطيع أن يحافظ على شرف بروسيا وعزة ألمانيا. إذ ان التطوع في الجيش البروسي لا يفيد بروسيا ما لم يكن المتطوع قوياً على الكفاح مؤمناً بصحة هذا الكفاح.

وإننا لنجد شبهاً أيضاً لهذا الأمر في فرنسا. ففي وسط الثورة الفرنسية، بدأ المفكرون الفرنسيون يضعون قواعد ثابتة للحالة الاجتماعية التي طغت في زمانهم. فنجد مثلاً العالم الاجتماعي كونت وأستاذه ورفاقه يستفيدون من الرجة السياسية التي حصلت في فرنسا من قيام نابوليون إلى سقوطه وتبدّل الحكم من ملكي إلى جمهوري، وبالعكس، فيوجدون للعالم قواعد علمية لعلم ثابت استفادت منه فرنسا وأفادت العالم به.

وكذلك نجد سويسرا الصغيرة تضع قواعدها الاجتماعية والسياسية في وسط عاصفة الثورة الفرنسية، فنشاهد «بستالوتزي» يؤسس مدرسته المعهودة التي أصبحت مضرب الأمثال وكعبة القاصدين من رجال التربية والتعليم، ودعي لذلك بأبي المدرسة الحديثة.

وقد كان منتظراً أن تستفيد بلداننا من هذه الحرب فتسرع في وضع الأسس القومية، وتستفيد من تطورات الحرب لتُحدث الاصلاح الاجتماعي والاقتصادي والسياسي الذي تحتاجه بلداننا أكثر من غيرها، إلا أنه لم يحدث ذلك، ويا للأسف. فيجب إذن ألا نتأخر كثيراً، فحياة الشعوب لا سيما في الشرق الأدنى ستكون كلها عواصف وزوابع، فلنعجّل لنستفيد من هذه الزوابع، فلها فائدتها كما فيها الخطر الجسيم.

- ٢ -

وقبل البدء في بحث القومية ودعائمها أود أن أذكر لكم بعض المشاهدات التي شاهدتها في أوروبا أثناء إقامتي فيها.

لقد أُرسلت أواخر سنة ١٩٣٥ في بعثة حكومية لدراسة التربية والتعليم في معاهد المانيا، وقد كان همي ملاحظة التربية القومية فيها لأن برلين كانت آنذاك قبلة أنظار العالم بما امتازت به من نظام دقيق وقوة قومية جبارة.

وكانت الأمة العربية تنظر إلى برلين كمثل أعلى للقومية، لذلك فيحسد كل من تتاح له الفرصة لزيارة برلين، وكان حظي أن أسكن بجوار أحد الشيوعيين الألمان. وقد حدثت بيننا صلة ود وتعارف.

أخذ صاحبي يحدثني كثيراً عن ألمانيا ومساوىء الحكم النازي فيها بصراحة واطمئنان

لأنني أجنبي ولا يخشى الوشاية به. وكذلك أحدثه أنا عن بلادي وكفاحها ضد الاستعمار.

وفي أحد الأيام، أعلنت الصحف الألمانية أن الباخرة «ألمانيا» قد اعتدي عليها من قبل الثوار الشيوعيين في إسبانيا، فأعطت الحكومة الألمانية أمرها للباخرة بأن تقابل الاعتداء بمثله والنار بالنار (وهذا طبع ألماني). ففعلت الباخرة وأوقعت ضرراً كبيراً بالثوار الشيوعيين. زرت صاحبي لأرى تأثير الخبر في نفسه لأنه أحدث رجة في الأوساط الشعبية والسياسية كافة، وإذا بصاحبي مقطب الوجه كئيب السحنة فبادرته بالحديث، وكان ظني أنه متأثر من جراء خسائر الشيوعيين واخوانه في العقيدة والمبدأ، وإذا الأمر على عكس ذلك، إذ قال لي إنني كضابط ألماني لا أستطيع أن أتحمّل أن يُعتدى على باخرة ألمانية تحمل علم الدولة الألمانية مهما كان نوعه أو شكله من قبل أي فئة من الناس مهما كان شكلها أو عقائدها. فعجبت لهذه القومية المتينة وقلت حقاً لقد أدى النشيد الألماني مفعوله في النفوس، إذ صار كل فرد من هذه الأمة يعتقد أن «ألمانيا فوق الجميع»، وأصبحت المبادىء المكتسبة حديثاً لا تستطيع أن تتغلب على مفعول التربية المتينة التي بدأت مفعولها منذ الرضاعة، وشملت نواحي الحياة جميعها.

وحدث أيضاً أن التقيت مع بعض طلاب الجامعات الانكليزية عام ١٩٣٨ في جنوب ألمانيا، وبدأ الحديث بيننا بصراحة لأن المجتمعين كانوا من الأجانب. فتناول الحديث في الدرجة الأولى قضية فلسطين لأنها كانت آنذاك من القضايا العالمية، وتهمني كعربي كما تهم رفاقي الانكليز. وبدأت الهجوم على خطل السياسة البريطانية وفظائع الانكليز في فلسطين، ولما أعيا أصحابي المنطق ورأوا أن الحقائق لا سيما التي نشرتها الصحف الألمانية لا تُدحض، قال أحدهم بلهجة الهادىء الرصين: قد يكون ما تقوله صحيحاً ولكن ثق أن الحكومة الانكليزية مهما كان لونها وطابعها لا تقوم بأي عمل إلا وفق مصلحة الامبراطورية الانكليزية، ولذلك فلا بد لها من وجهة نظر خاصة لسنا بحاجة إلى معرفتها.

عجبت لهذا الجواب، وأكبرت القومية الانكليزية وقلت لقد تحققت نبوءة جون لوك ومطالبته التربية الانكليزية أن توجد في الانكليز شعوراً بأن مصلحة بلادهم هي المقياس للحق والباطل.

فكرت في أن أجد في جيلنا الحاضر ما يشابه هذا المثل أو سابقه فلم تساعدني الذاكرة، إلا أنها أعانتني بأن أعادت إليّ قول خالد بن الوليد عندما عُزل من قبل عمر بن الخطاب: «إنني لا أحارب لا لأبي بكر ولا لعمر، ولكن لإعلاء كلمة الله».

- ٣ -

والآن، لننظر قليلاً إلى نشأة القوميات في العالم الغربي، ولنلاحظ الأسس التي بنيت عليها.

القومية هي فكرة سياسية نشأت في القرن التاسع عشر في أوروبا منذ أخذت العلوم تشق طريقها الجديد في البحث والتنقيب وبدأ التحديد يأخذ مكانه في الأبحاث العلمية



كافة، إذ احتلت القواعد الرياضية والتجارب الطبيعية المكان الأول الذي كانت تحتله الفلسفة والتفكير العقلي.

وفي هذا العصر بدأ علم الاجتماع يأخذ مكانه بين العلوم الطبيعية والرياضية، فلم يكتفِ العلماء بسرد الحوادث التاريخية وملاحظة الطبائع والعادات البشرية، بل جربوا أن يفسروا التاريخ وحوادثه المختلفة وفقاً للمقاييس العلمية التي سادت العصر، وأرادوا أن يعرفوا سير المستقبل وتطور الأمم قياساً على المظاهر الاجتماعية كما يعرف الفلكي تطورات الجو من مراقبة حركة النجوم ودوران الأرض وكما يتنبأ الرياضي بالنتيجة وفقاً لتسلسل المسألة الحسابية.

في وسط هذا الصراع العلمي وانتشار فكرة التحديد والمقياس الدقيق نشأت الفكرة القومية في أوروبا واحتلت مكاناً عالياً في نفوس العلماء والمفكرين، فتناولوها بالبحث والتمحيص وقارنوها بالحركات الأخرى، واظهروا تأثيرها في حياة الشعوب وسير السياسة. ولقد اختلف العلماء في تحديد عوامل القومية نسبة إلى اختلاف الأمم التي ينتمون إليها، فكل عالم اجتماعي نظر إليها بمنظار أمته ومصلحتها واتجاهاتها.

وقد اتفقوا على أن العوامل الآتية هي التي تقوم عليها القومية وتعطيها الطابع الخاص:

١ ـ الشعور العام بالانتماء إلى أصل واحد حيث يشعر كل فرد من أفراد الأمة أنه ينتمي إلى هذا العنصر، مع أنه لا يشترط في كل شخص أن يستطيع ايصال نسبه إلى الأجيال البعيدة، بل ان الشعور بالانتماء إلى العنصرية المعينة كافٍ لذلك. فمثلاً، إذا ما اعتز الألماني بفردريك وبسمارك، والانكليزي بشكسبير وجون لوك، والفرنسي بروسو وفولتير، والعربي بعمر بن الخطاب وابي العلاء فلا يعني أكثر من الاعتزاز بالاجداد الغابرين والفخر بأنه ينتسب إلى العنصر نفسه الذي ينتسب إليه هؤلاء الرجال.

والأهم بالنسبة إلى العنصر هو ليس اثبات الأصل وإنما عدم وجود شك في أن الشخص ينتمي إلى عنصر آخر إذ ليس المهم التأكد من العنصر بل المهم الاعتقاد بهذا التحدُّر والاعتزاز بصفات العنصر وخصائصه.

٢ ـ اللغة، وهي أهم عامل في تكوين القومية والمظهر القوي الذي تمتاز به كل قومية عن الأخرى. فهي علاوة على أنها تربط الحاضر بالماضي بواسطة الآداب والشعر، فهي كذلك وسيلة للتفاهم وتكوين الانسجام في التفكير والشعور. لذلك تحرص كل قومية على الاعتناء بها واعطائها الطابع النقي ولا يمكن القومية أن تعيش ما لم تكن لها لغة خاصة بها.

ولهذا وجّه القوميون همهم الأول إلى إحياء اللغة والاعتناء بها، وسخروا المدرسة لذلك وحاربوا بذلك اللغات القديمة التي كانت طاغية على المدارس، كما أن المستعمر يوجه أكبر مقاومة إلى اللغة المحلية إذ بالقضاء عليها يقضي على أهم دعامة للقومية.

٣ ـ الاعتزاز بالمجد التاريخي، وقد تعتز بعض القوميات بمجد ماضٍ أو وضع حاضر

ممتاز، إلا أن الاعتزاز بالماضي يساعد على تكوين شعور عام بين أفراد الأمة الواحدة. فكما أن الآلام والآمال تجمع الناس وتوحد بينهم، كذلك ذكرى هذه الآلام أو الفخر بالحوادث التاريخية الجسام التي قامت بها الأمة تساعد على الترابط القومي وتكوين الشعور العام.

ولهذا يصعب القضاء على أمة لها تاريخ حافل مهما كانت قوة المستعمر وسطوته. والمستعمر يحارب أمجاد الأمم التي يستعمرها حتى يقضي بذلك على تحسسها بالعزة والفخر.

٤ ـ اتحاد العادات والعقائد، وتجانس العادات يجعل الأفراد متشابهين في مظهرهم، متقاربين في حركاتهم وأعمالهم. كما أن اتحاد العقائد لا سيما الدينية منها يكوّن رابطة قوية تدفع كل واحد إلى التعاون مع صاحبه والاندفاع في سبيل تحقيق المثل العليا لهذه العقائد.

ولا ننكر هنا أن بعض العقائد الدينية كانت حجر عثرة في تكوين القوميات بينما الأخرى تسهل نشوءها وتقوي تقدمها. فالدين المسيحي، مثلاً، كان عقبة كأداء في سبيل القومية الألمانية بينما نجد الدين اليهودي صار عاملاً فعالاً في تقوية الفكرة الصهيونية.

وهناك من يضيف إلى هذه العوامل الأساسية في تكوين القومية عاملاً آخر لا سيما في العصر الأخير وهو المصلحة المشتركة بين أفراد الشعب الواحد. فكلما كانت المصلحة مشتركة نمت القومية بسرعة وكان بناؤها متيناً، بينما نرى أن هذه المصلحة تضعف القومية إذا كانت غير مشتركة.

ـ ٤ ـ

ورغم اتفاق العلماء على أسس القومية العامة نجدهم ينقسمون إلى قسمين فيؤلفون معسكرين متنازعين في أفكارهم واتجاهاتهم.

فالمعسكر الأول كان يضم علماء الألمان الذين يرون أن أهم ركن للقومية هو وحدة الأصل والجنس، بينما نجد المعسكر الثاني يضم علماء الأمريكيين الذين يرون أن أهم دعامة تقوم عليها القومية هي اللغة والثقافة والشعور المشترك. ونحن نعلم بوضوح سبب اهتمام الألمان بالناحية العرقية لأن تفرّق العنصر الجرماني وخضوعه لدول مختلفة هو الذي حمل العلماء على منح العرقية المقام الأول في تكوين القومية.

بينما نجد رأي الأمريكيين منسجماً مع تكوين الدولة الأمريكية التي تضم عناصر مختلفة وشعوباً متباينة. وقد وجد كل من الفريقين أمثلة في الأمم الأوروبية يدعم بها نظريته ويقوي بها برهانه. وحتى يومنا هذا لم يحصل اتفاق تام على بحث القومية بين جميع العلماء.

ـ ٥ ـ

وقد صادفت القومية مشكلة قوية أيضاً في القرن التاسع عشر وهي مشكلة الكيان السياسي، إذ نرى العلماء يختلفون هنا أيضاً. فمنهم من قال بأن كل عنصر أو كل شعب له





الحق الطبيعي في تأليف كيان سياسي خاص به، بينما نجد الآخرين ينكرون عليه هذا الحق متعللين بأن هناك شعوباً كثيرة قليلة العدد لا تستطيع انشاء كيان خاص بها. وليس هناك مانع من الانضمام إلى غيرها للتعاون في بناء هذا الكيان السياسي.

وأهم العلماء الذين دافعوا عن هذه النظرية وهي «لا حاجة هناك لإيجاد كيان سياسي لكل قومية»، هم علماء النمسا.وذلك لتثبيت دعائم امبراطوريتهم القائمة على شعوب وعناصر مختلفة. وقد أيدهم في ذلك علماء الانكليز والفرنسيين لأنهم لاحظوا أن بروسيا التي نادت بضم العناصر الجرمانية في كيان سياسي واحد ستكون خطراً على مستقبل دولتهم ومكانتها السياسية العالمية.

أما العلماء البروسيون ومن ورائهم القوميون الألمان كافة فقد ناصروا فكرة تكوين كيان سياسي لكل قومية وذلك وفقاً للمنطق العلمي الذي أيد نظرتهم.

وقد اصطدمت القومية آنذاك بحركات معاكسة أهمها وأقواها هي الحركة الاشتراكية التي حاولت أن تُرجع تطور الشعوب ونشوء المجتمعات إلى عامل اقتصادي بحت.

ولم تصبح الاشتراكية ذات مفعول قوي حتى وجهت نظرها نحو السياسة وحاولت دعم مبادئها بالقوة. ولم تؤثر الاشتراكية كثيراً في الشعوب التي نما فيها الوعي القومي أو ارتفع فيها المستوى الثقافي. فنشاهد مثلاً أن كارل ماركس الألماني اليهودي رغم شغفه بفلسفة هيغل وتأثره بحالة العامل الانكليزي وإعجابه بنظام الجماعات السلافية لا يؤثر كثيراً في الشعب الألماني أو الانكليزي وإنما كان تأثيره في نظام روسيا السوفياتية لأن نظام الجماعات في الأراضي كان سائداً في جميع الشعوب السلافية قبل الاشتراكية الماركسية.

فألمانيا لم تصغِ لكارل ماركس اليهودي الذي نما وتثقف فيها وإنما بقيت معتزة بنظريات هيغل ومن تلاه من العلماء الألمان.

وانكلترا لم يُحدث فيها صراخ كارل ماركس أو انغلز أي انقلاب سياسي أو اجتماعي أو اقتصادي وإنما بقيت سائرة وفق قواعد آدم سمث الانكليزي.

بعد هذه المقدمة التاريخية يحسن بنا أن نحوّل نظرنا إلى القومية العربية لنطبّق عليها المقاييس العلمية نفسها التي طبقتها القوميات الأوروبية.

بدأت القومية العربية في القرن العشرين، أي بعد قرن تقريباً على تكوين القوميات الأوروبية. وسبب هذا التأخر معلوم لدى الكثيرين لأن الأمة العربية كانت تغط في سبات عميق أيام حكم الأتراك العثمانيين ولم يكن لها صلة بأوروبا، لذلك بقيت بعيدة عن كل تطور علمي أو صناعي أو اجتماعي. ولكن بعد أن اتصلت الدولة العثمانية بألمانيا في أوائل القرن العشرين وأرسلت ضباطها إلى ألمانيا للدراسة في معاهدها، عاد هؤلاء الضباط حاملين



الفكرة القومية التي طبعت الشعب الألماني، وأهم مظهر لها العنصرية. لذلك اعتقد الشبان الأتراك أن لا بد لهم لإنقاذ امبراطوريتهم مما هو محدق بها من أخطار من إزالة الفروق العنصرية الموجودة بين الشعوب التي تتألف منها هذه الامبراطورية العثمانية، وذلك بتتريك كل العناصر غير التركية ومنها العنصر العربي. وقد قلّد الأتراك الألمان في هذه القضية تقليداً أعمى ونسوا أن الشعب التركي أقلية ضئيلة بالنسبة إلى الشعوب الأخرى التي تؤلف الامبراطورية العثمانية.

زد على ذلك أن بعض الشعوب التي تؤلف الامبراطورية العثمانية، وفي مقدمتها العنصر العربي، يتمتع بتاريخ وحضارة كانتا مفخرة لا للعرب فقط وإنما للاتراك انفسهم.

وكان طبيعياً أن يقاوم أبناء العرب هذا الاتجاه التركي الجديد بأساليب شبيهة بالأساليب التي اتخذتها بعض العناصر الأوروبية في أثناء تحررها القومي، فبدأت بذلك القومية العربية مدافعة سلبية لا مهاجمة انشائية. فلا نستغرب إذن أن نجد العرب حتى الآن أقوياء في حركاتهم السلبية لأن السلبية عندهم مستمرة حتى يومنا هذا.

والصفة الثانية التي لازمت القومية العربية منذ نشوئها حتى يومنا هذا هي صفة الكفاح السياسي.

وقد وجدنا أن القوميات الأوروبية دخلت في بادىء الأمر في المختبرات العلمية والأبحاث الفلسفية، فبعد أن تم درسها وتحليلها وتكامل نضوجها تناولتها السياسة وبدأت تطبّقها خطوة خطوة.

أما عند العرب، فلم يسبق تكوين القومية العربية بحث فلسفي عميق ولا تحليل اجتماعي صحيح بل طفرت رأساً إلى السياسة وبقيت تائهة فيها حتى اليوم.

ولهذا لا نعجب إذا ما سألنا أحد القوميين العرب عن أسس القومية العربية، وكيف يجب أن يكون شكل البناء فيها، أن يجيبنا بلا تردد: «على طريقة تكوين الوحدة الألمانية أو الايطالية»، وهو معذور في جوابه لأنه لم يجد في حياته بحثاً دقيقاً عن القومية العربية واتجاهاتها واهدافها العملية. وقد لا يضير العرب رغم كنزهم التاريخي الاستفادة من التجارب التي مرت بالقوميات الأخرى. فها أننا نجد، مثلاً، أن القومية الألمانية تعترف بفضل اليونان على تكوين أسس نهضتها ودعائم فلسفتها، وحتى السويسريين قد استفادوا من تاريخ إسبارطة الشيء الكثير في تثبيت الوطنية السويسرية.

إلا أنه يجب على كل قومي عربي أن يكون ملمّاً بالفروق التي تفرق قوميته عن القوميات الأخرى التي يريد أن يستفيد من تطورها وعوامل تكوينها ليستطيع بذلك بناء قوميته على أسس ثابتة وقواعد متينة.

فالوحدة الألمانية كانت إلى زمن قريب المثل الأعلى للقوميين العرب في تحقيق أهدافهم القومية. وقد بالغ بعض كتّاب العرب في ذلك حتى نعتوا بعض الأقطار العربية ببروسيا

العرب وبعض رجالها ببسمارك العرب ومولتكه العرب.

وبسمارك يعدّ بحق محقّق هدف القومية الألمانية، وهو الوحدة الشاملة، فلا عجب إذن من أن يفخر كثير من حملة الأفكار القومية في شعوب كثيرة بأن يتشبهوا ببسمارك، إلا أن بسمارك لم يستطع تحقيق الهدف القومي إلا بعد أن سبقه شعور عام ملأ نفوس الألمان وكوّن فيهم عقيدة ثابتة بأن لا حياة لألمانيا دون وحدتها التامة.

ومع هذا، فلا ننكر ما لبسمارك من الفضل الكبير في تعجيل الوصول إلى الهدف القومي. فقد كان بسمارك ذا شخصية متينة واطلاع سياسي واسع وجرأة بروسية نادرة. وإليكم بعض الأمثال على ذلك:

كان بسمارك معروفاً لدى الساسة الأوروبيين لأنه قضى وقتاً كبيراً في السلك الدبلوماسي بين باريس وفيينا ولينينغراد، وكان صريحاً وقوياً في مواقفه «الدبلوماسية» كافة مما حمل الكثيرين من الساسة الأوروبيين على مقاومته والحيلولة دون تسلّمه السلطة التامة في بروسيا.

والمحادثة التالية تُظهر لنا شيئاً من سر هذه المقاومة: قال بسمارك في حديث له عن مهمة بروسيا «إن بروسيا التي اخذت على عاتقها انجاز الوحدة الألمانية سوف لا تبالي بكل التضحيات والجهود في سبيل تحقيق هذا الهدف وسوف لا تقصر في تثبيت سلطتها في أوروبا».

وعندما سأله المارشال فالاند الذي عيّن حاكماً عاماً لإحدى المقاطعات الفرنسية المهمة، والمارشال من المعجبين كثيراً ببسمارك وأحبه لجرأته وصراحته، قال له: «يا عزيزي بسمارك، إني أحبك وأحب المانيا، لا سيا بروسيا، إلا أنني واثق من أنكم إن سرتم على هذه الطريق ستتقابل سوية بالسلاح عاجلاً أم آجلاً. نحن الفرنسيين أشبه شيء بالديك الذي تسلّط على بيوت الدجاج الأوروبية، ولا نسمح لغيرنا ان يصيح في أوروبا». فأجابه بسمارك:

«إن بروسيا لا تخشى أحداً في هذا الوجود إلا الله، وأقلّ من تخشاه فرنسا. إن صياح الديك هذا لا يزعج النفس الألمانية ولا يقلقها. وإذا شعرت فرنسا بالرغبة في الانتقام والهجوم، فلها أن تفعل ذلك متى شاءت وستجد الشعب البروسي في كل لحظة مستعداً لمواجهتها».

ثم قال أيضاً في إحدى محادثاته مع بعض الفرنسيين: «انتم ضعيفون جداً فأقوى ما لديكم من الأسلحة إنما هو ألسنتكم الحادة وأقلامكم الوقحة...».

وقد كان بسمارك بعيد النظر، عملي التفكير، حتى في حل المشاكل القومية الداخلية. فقد تحدّث هو نفسه عن بعض مواقفه الجريئة الجبارة فقال: «عندما عرضت ميزانية الدولة على البرلمان الألماني، وبدأ النقاش يدور حول ميزانية الجيش البروسي، رأيت من واجبي أن أظهر رأيي بوضوح وأن أطالب المجلس بتخصيص أكبر ما يمكن من الميزانية للجيش، ليستطيع الجيش البروسي أن يكون في وقت قصير أقوى جيش في أوروبا وباستطاعته تحقيق الأهداف القومية التي تعهدت بها بروسيا للشعب الألماني وأن يسحق كل مقاومة. وفي جملة المقاومات التي تعترض طريق الجيش البروسي هي النمسا التي أصبحت تعرقل تقدم القومية الألمانية، وصارت لعبة بيد الدول الأجنبية تستخدم ضد بروسيا وضد الهدف القومي الألماني العام».

فانتهز المعارضون في المجلس وخارجه هذه التصريحات الجريئة وشنوا حملتهم على بسمارك بحجة أنه يريد أن يخلق حرباً أهلية بين أبناء العرق الواحد (أي العرق الجرماني)



بحجة توحيده. وقد حدثت أزمة وزارية شديدة، إلا أن القيصر لم يكن آنذاك في برلين، فاضطر القيصر تحت تأثير الضجة التي أحدثها بسمارك وخصومه إلى العودة إلى برلين كي يقيل الوزارة وينهي الأزمة. فذهب بسمارك لاستقبال القيصر على مسافة خارج برلين، وبدأ يناقش القيصر في صحة نظريته وأن تلك هي الخطة الصائبة للوصول إلى الأهداف القومية العامة.

إلا أن القيصر رفض الاصغاء إليه وأجابه: «ثق يا بسمارك إني لا أستطيع أن اسندك ولا بد من الاستقالة» فأجابه بسمارك: «يا صاحب الجلالة إن في حياتك ضماناً للشعب وللأمة وللأهداف القومية العامة». فقال له: «إني إن سندتك فسوف أخسرك وأخسر نفسي». فعز على بسمارك الأمر، وأخيراً وقبل الدخول إلى برلين قال له بكل صراحة وجرأة: «إنني يا صاحب الجلالة أخاطبك الآن لا كقيصر بروسيا ولكن كضابط في الجيش البروسي الذي أقسم اليمين على خدمة بروسيا وتحقيق أهدافها القومية، ناشدتك بشرف الجندية، هلا ترى أن خطتي هي الصائبة وهي العملية في الوصول إلى الهدف؟» فانتفض القيصر آنذاك وصعد الدم إلى وجهه وقال:

«نعم يا بسمارك سر في سياستك، وأنا مؤيد لك وليحدث ما يحدث». فسار بسمارك رغم كل الزوابع ثابت الخطى قوي الإرادة في خطته.

ولم تكن آراء بسمارك مبنية على العاطفة أو الدعاية، بل هي مستمدة من عقيدة قومية وفلسفة متينة، لذلك نجده سائراً على خطته بكل صراحة في أعماله المختلفة كافة سواء كان في السلك «الدبلوماسي» أو في وزارة الخارجية أو لما أصبح مستشار الدولة.

ولم ينفرد بسمارك وحده بهذه الصراحة والجرأة، بل كان ذلك صفة عامة في جميع القوميين الالمان، لا بل ملكت نفوس أكثر العلماء القوميين عند أكثر الشعوب الأوروبية، إلا أن بعضها ظهر بطابع آخر غير الطابع البروسي العسكري. فهاكم مثلاً آخر، وهو العالم السويسري بستالوتزي الذي مر ذكره، واسمعوا نداءه إلى وطنه.

لقد كان بستالوتزي من القوميين السويسريين الذين عاصروا نابوليون ورأوا بعينهم خطره على بلادهم وكيان أمتهم الصغيرة، وقد زار باريس وشاهد نابوليون فيها، ودرس أعماله واتجاهاته، ثم عاد إلى وطنه سويسرا وجلاً مما رأى وخائفاً من النتيجة. ففكّر أن خير منقذ لبلاده من هذا الخطر الجديد وأحسن معين على بقاء الكرامة السويسرية عزيزة الجانب هي التربية الشعبية، لا سيما تربية أبناء الفقراء من الشعب. فأسس مدرسته وبدأ يعلّم النشء على طريقته الجديدة.

فكان يرى أن القومية لا يمكن أن تكون في نفس كل سويسري ما لم يكن الفرد قادراً على العمل، أما الشعور وحده فلا يكفي. ولذلك فقد نادى بأن التربية يجب أن تستهدف تقوية الشعور والتفكير والعمل، أو كما سمّاها نفسه تربية الرأس والقلب واليد. ولم تمض فترة من الزمن حتى ثبتت دعائم هذه التربية الجديدة في مدرسته فرفعته سويسرا إلى مقام الزعامة الأول؛ إلا أنه بقي مثابراً على خطته التربوية ولم يرجع إلى السياسة رغم الحاح الكثيرين من رفاقه وأبناء وطنه عليه، وقد خاطب الشعب السويسري في عدة مناسبات بكلمات صريحة وجريئة اليكم بعضها:



«وطني! إن مسؤولية هذه الفوضى الاجتماعية والمدنية تقع على عاتق الحكام من ابنائك قبل المحكومين، فهم المسؤولون عن القيادة والتوجيه، ولا يمكن أن تصلح هذه الحال حتى يتضامن الحكام والمحكومون في بناء كيانك وتشمل الهيئة الاجتماعية فكرة واحدة وخطة واحدة مقتبسة منك ومن خصائصك.

وطني! أنا واثق أنك لم تفهمني خطأ، فلا تخلط بيني وبين الناس المحتقرين الذين يعيشون فيك والذين يشغلون كل أيامهم في الجدل السياسي العقيم. إنني لست من هؤلاء يا وطني، فإن أول وآخر سياستي هي التربية وكل أمر لا يلامسها لا أبذل له جهداً كبيراً. إنني أدع بكل سرور أي شخص كان أن يقول رأيه وأصغي إليه حتى ولو عارض رأيي، ولكن لا أحشر نفسي في زمرة أولئك الذين ليس لهم رأي خاص وإنما يتمشدقون تمشدقاً، ويستخدمون هذا التمشدق كرأي خاص لهم للوصول إلى منافعهم الخاصة. ويحاولون منا أن نقبل ذلك منهم، ثم يتهموننا إذا رفضناه بشتى التهم كأننا نحن المستغلون والمستثمرون!...

ولا أحشر نفسي يا وطني أيضاً مع أولئك الذين إذا كلمتهم عن الحقيقة والواجب والحقوق الشخصية، لا سيما حقوق الأرامل والأيتام والمضنكين من أبنائك، وبرهنت على صحة قولي كما لو كان اثنان في اثنين أربعة، أجابوا على ذلك أن هذا كلام طيب لطيف ولكنه بعيد التطبيق في محيطنا ووقتنا!...

إن هذه الجملة مثبطة للعزائم قاتلة للانتاج الشعبي والقومي.

إن حالنا تدعو الكل، لا سيما الأذكياء والفعالين، للبدء بالعمل رغم الصعوبات الحالية، ولا أنكر أن شخصاً يسير طول حياته محني الرأس لا يستطيع فجأة وفي لحظة واحدة أن يعتدل تماماً ويسير منتصب الرأس. ولو كان الوقت عادياً وطبيعياً لما كانت الحاجة كبيرة إلى الاسراع في العمل.

أما وأن البيت يحترق والنار تلتهم الغابات السويسرية، وتتلف القرى والمدن فلا يُسمح لأي شخص مهما كان نوعه أو مركزه أن لا يكترث في الواقع، ويضع يديه في جيبه ويسير كما يشاء متفرجاً على حريق البلاد وتداعي ثروة الأمة التي تلتهمها هذه النيران.

أيها الوطن! لقد كنت في كفاح أوروبا التحريري في المؤخرة نسبة إلى التضحيات التي قدمتها لقلة عددك وعدّتك، فلتكن الآن في مقدمة هذه الشعوب في المحافظة على هذه الحرية بواسطة عقلك وتفكيرك وحسن إدارتك. إن الأجيال السابقة قد وضعت في عنقنا هذه الأمانة: الجمهورية الصغيرة الحرة المستقلة. ونحن نعلم تماماً أن هذه الجمهورية احتُرمت من قبل شعوب أوروبا لا لقوتها ولكن لضعفها، فبضعفنا احترمت أوروبا الحقوق الانسانية التي يجب أن تُحترم. وبعض أبنائك يعتقدون أننا أحرار ما دام قانون بلادنا حراً وجمهورياً، وكلما طالبناهم بالعمل أجابوا عن ذلك أننا أحرار، كأننا ننكر عليهم هذه الحرية!.. ولكن يجب أن تثبت الحرية لا في القانون الأساسي وحده بل في روح وفكر ويد كل سويسري.

أيها الوطن!... أرجو أن تسمع ندائي اليوم وغداً لأن عمري قد انقضى وقاربت الموت، ومن واجب مودّع الحياة أن يخاطب اصحابه وأهله بكل صراحة واخلاص. فانصت إلى أقوالي التي وإن ظهرت ضعيفة الجمل ركيكة العبارات، إلا أنها وصيتي الأخيرة ألفظ فيها أنفاسي وأصبّ فيها روحي وأنا واثق من أن بلادي سوف تنال ما تصبو إليه، ولكن بعد موتي واندراس قبري!...».

إن هذه القومية المتينة وأمثالها المبنية على العلم الصحيح والاطلاع العميق والشعور القوي، هي التي تدفع المخلصين من أبناء الأمم لأن يكونوا جريئين ثابتين لا يتغير لهم موقف ولا تتزعزع لهم عقيدة. وهذه القومية لم تكن في عصر واحد فقط كما يتصور الكثيرون، بل عامة في العصور كافة. فهي التي دفعت، مثلاً، في عصرنا هذا البطل الألماني لودندروف، بطل معركة تاننبرغ الذي حاز على أعلى لقب عسكري في ألمانيا، لأن ينضوي تحت لواء



الجندي النمساوي هتلر عندما رأى أنه يقدر أن يحقق للشعب الألماني أهدافه ويوصله إلى غايته القومية. وهي نفسها التي حملت ابن القيصر فلهلم لأن ينضم إلى الحزب النازي الذي كان يمثل العمال ويسير في الشوارع معهم حاملين الصناديق لجمع التبرعات من عامة الشعب للفقراء، وينشد النشيد الألماني، ويحمل راية الحزب التي تخالف راية ألمانيا في عهد أجداده وآبائه. وقد أكبره الشعب الألماني وانتظر منه ذلك، لأن الروح القومية هي التي تضعف الاعتبارات الأخرى.

وهذه القومية المتينة هي التي أوجدت الديمقراطية السويسرية والتي دفعت كل فرد من أفراد الشعب السويسري لأن يكون حاضراً للدفاع عن الوطن بحيث يلحق بفرقته خلال ساعتين إذا أعلن النفير العام في سويسرا، وهي التي أزالت كل الفوارق العنصرية والشعبية وحتى الاقتصادية بين الحكام وأبناء الشعب في سويسرا، فخلقت منهم كتلة متراصة رغم صغر بلادهم وقلة عددهم واختلاف عناصرهم ولغاتهم، حتى أصبحوا الآن موضع تقدير العالم بأسره ومضرب الأمثال في الرقي والترابط الشعبي.

وأمثال هذه القومية هي التي تدفع برجال الحكم والمعارضين في انكلترا لأن يسيروا متعاونين متفاهمين على مصلحة الأمبراطورية الانكليزية. فمصلحة الامبراطورية فوق كل مصلحة واعتبار.

- ٧ -

وإننا نجد أمثال هذه العقيدة أيضاً في تاريخنا الأول. فعندما ملكت نفوس العرب عقيدة قومية تناسوا كل ما بينهم من ضغائن واحقاد وتركوا الاعتبارات والتقاليد وساروا في طريقهم حائزين اعجاب العالم وتقديره. فقد دفعتهم عقيدتهم لأن يقاتلوا تحت الراية الإسلامية الجديدة أقاربهم وأبناء عشيرتهم وحتى آباءهم واخوتهم.

أما القوميون العرب السياسيون منهم والعلماء، فيعتمدون في آرائهم على العواطف الحادة الآنية، ولا أنكر عليكم أنني شاهدت، مثلاً، حفلة قومية في بغداد خطب فيها كثيرون من رجالات العرب ونادوا بتجديد البيعة للملك والعزم على مواصلة الكفاح القومي. ولم تمض إلا فترة قصيرة من الزمن حتى رأينا أكثر هذه الأصوات تخفت بعد أن نالت بعض ما تشتهيه في أقطارها. إلا أن هناك نفراً من أبناء هذه الأمة انتهلوا القومية العربية من منبع قوي واستقرت في نفوسهم على أساس علمي متين، لذلك لم يتغيروا في خلقهم ولم تضعف قوة كفاحهم. ومن هذا النفر القليل صبحي أبو غنيمة. لقد سمعت أبا غنيمة لأول مرة مع الوفود العربية ينادي بغداد لتقديم المساعدة لإنقاذ فلسطين وسوريا وشرقي الأردن، إلا أن قومية بغداد كانت آنذاك فكرة الملك أكثر منها فكرة الشعب.

وسمعته آخر مرة بعد مرور خمسة عشر عاماً على ندائه الأول، يصرخ ثانية بأعلى صوته مطالباً دمشق بمساعدة فلسطين وشرق الأردن، ويعيد ما قاله سابقاً في بغداد من ان استعمار

شرق الأردن يؤلف خطراً على الأقطار العربية كافة.

وأريد أن أضيف مؤيداً أبا غنيمة بأن الأيام السالفة برهنت على أن معركة شرق الأردن قد قررت مصير سوريا. فمعركة اليرموك هي التي فتحت أبواب المدن السورية أمام الجيوش العربية، وأثبتت المعارك التي دارت بين الجيش العراقي والقوات الانكليزية الزاحفة من شرق الأردن أيام حرب العراق عام ١٩٤١ أن معركة الرطبة هي التي قررت مصير بغداد.

ويحسن بنا، أن ننظر ثانية إلى القومية العربية في ضوء هذه الملاحظات لنرى اليوم بعض الأسس التي يجب أن تبنى عليها قوميتنا.

- ٨ -

إن أهم دعامة ترتكز عليها القومية العربية كما ارتكزت عليها القوميات الأخرى، هي **الفلسفة القومية**، فهي التي تعطي الاتجاه الثقافي وتكوّن العقيدة القومية وقد رأينا أن قوميتنا خالية من هذه الدعامة الأساسية.

فإلى يومنا هذا، لم تبحث القومية العربية بصورة علمية، ولم يصرف عليها بعض كتّاب العربية أو علمائهم شيئاً من وقتهم أو جهداً من تفكيرهم، لذلك نرى الخلط الكثير في المجلات والجرائد والخطب والمحاضرات عند بحثها القومية العربية.

وقد لا نستغرب أن نرى كثيراً من ساسة العرب، وحتى من كتّابهم المشهورين ما زالوا يخلطون بين الفكرة الشرقية والفكرة العربية أو بين القومية العربية والوحدة الإسلامية.

فالفلسفة القومية هي التي تحدد الأهداف والطرق وتبيّن علاقة القومية بالحركات الاجتماعية الأخرى. وفقدان الفلسفة من القومية العربية جعلنا نخلط كثيراً بين القومية العربية والدين الإسلامي. على أني لا أنكر أن الدين الإسلامي هو الذي رفع شأن الأمة العربية وساقها إلى إنشاء مدنية وحضارة عالمية.

إلا أننا اليوم أصبحنا نعيش في عصر يسود فيه التحديد في كل شيء فلا ينبغي لنا أن نخلط بين فكرة وفكرة وعقيدة وعقيدة.

ومن ساح البلدان العربية، وجد أن الحركات القومية في الاقطار كافة متداخلة في الدين بصورة أصبح العالم لا يميز الآن هل هذه الحركات في المشرق العربي ذات صبغة قومية أم أنها ثورة دينية؟

واذكر أنه عند زيارتي المغرب العربي، وجدت العرب هناك لا يفرّقون كثيراً بين العربي (المسلم والمسيحي) والأجنبي. والسبب في ذلك واضح، فإن بلاد المغرب العربي موتورة من أوروبا لا سيما بعد خروج العرب من الأندلس وتنصير العرب المسلمين فيها.

زد على ذلك أن الاستعمار الأوروبي الذي جثم على صدر هذا القسم من الوطن العربي



لا يزال يزهق روحه ويحاول القضاء على أنفاسه، ولا سيما أن مستعمري المغرب العربي كلهم من الشعوب الأوروبية التي يسود فيها التعصب الكاثوليكي، كما أنه لا يوجد عرب في المغرب العربي غير مسلمين كما هو عندنا في المشرق العربي.

ولما كان الدين الإسلامي خير وسيلة للمغرب والمشرق العربيين ليقارعا به الاستعمار، أصبح الشعب العربي يستخدم هذا السلاح ضد الاستعمار الغاشم ولا يزال يتمسك به حتى الآن. ومهما حاولت فرنسا أن تفصل بين العنصر العربي في شمال افريقية والبربر فإنها لم تفلح رغم سطوتها ووسائل اغرائها لأن العقيدة الدينية قوية في نفوس العرب والبربر وتؤلف منهم أخوة متراصين ضد الفرنسيين المستعمرين. وأوروبا ما زالت تعتقد أن الروح القومية في الشرق الأدنى ضعيفة وأن العقيدة التي تعم شعب هذا الشرق إنما هي العقيدة الدينية المتعصبة. ورغم مخالفة الواقع هذا الاعتقاد سواء كان ذلك في حوادث الثورة العربية الأولى أو في كفاح فلسطين أو الكفاحات الأخرى التي اشتركت فيها العناصر العربية على اختلاف أديانها ومعتقداتها، ما زالت أوروبا متمسكة برأيها إما عن جهل أو سوء قصد. ونحن نعذرها إلى حد ما في هذا الرأي لأن القوميين العرب أنفسهم لم يحددوا موقفهم حتى الآن من الدين بصورة دقيقة. ولست بحاجة إلى ذكر الأمثلة على ذلك، فهي كثيرة وظاهرة في كل حركة قومية أو مناقشة عامة.

والدعامة الثانية التي يجب أن تقوم عليها القومية العربية هي **الإيمان القومي**، ولا يتم هذا ويشمل نفوس الأفراد حتى تنضج الفكرة وتتشبع نفوس الأجيال الحاضرة بالعزة التاريخية وتتذوق اللغة العربية كما حدث ذلك في أكثر القوميات الأخرى.

وكيف ننتظر من أبناء العرب اليوم إيماناً قومياً وهم يجهلون تاريخهم ولغتهم ولا يعرفون عن بلدانهم العربية وما يجري فيها من تطورات وانقلابات بقدر ما يعرفون عن الدول الغربية والأمم البعيدة عنهم. فلا يمكننا مثلاً، أن نطلب من المدرسة العربية تحقيق هذا الإيمان القومي ما لم نوجهها توجيهاً صحيحاً ونفسح المجال لها للتعرف إلى بلدان العرب كافة.

فالشعب العربي في جميع الأقطار، رغم وجود الجامعة العربية ورغم مظهر التعاون العربي السياسي للحكومات العربية، لا يزال أكثر أفراده، وحتى طلاب مدارسه وبعض رجال دوله، لا يعرفون عن الحجاز واليمن أو عن تونس ومراكش بقدر ما يعرفون عن لندن وواشنطن وموسكو! . . .

والدعامة الثالثة التي يجب أن تقوم عليها القومية العربية هي **الاصلاح الاقتصادي**. فالشعب العربي ما زال يعيش قسم كبير منه في هذا العصر الذي ساد فيه النور والكهرباء والميكانيك عيشة العصور التي سبقت التاريخ. وقد نزلت حوادث جسام على الأمة العربية وغيرت كثيراً من انظمتها وعاداتها، إلا أنها لم تغير شيئاً كثيراً في نظامها الاقتصادي. فها أننا نرى القسم الأكبر من البلدان العربية قد انفصل عن الدولة العثمانية، وله حكومات محلية ذات صبغة استقلالية أو شبيهة بذلك، ولكن رغم اتصالها السياسي بأوروبا نجد أن الجهل والفقر والمرض هي التي تسود عامة الشعب العربي. فلا تزال البداوة منتشرة في كل بقاع



العرب، ولا يزال الاقطاع هو النظام الزراعي السائد في أكثر الأقطار العربية يعرقل سير التطور الزراعي المطلوب.

وحتى يومنا هذا لم نجد هيئة قوية تعالج هذه الناحية الحيوية في بلادنا وتطالب الحكومات العربية بإجراء أي اصلاح جوهري في الحقل الاقتصادي مع أن دول العالم جميعها قد تأثرت إلى حد كبير بالأفكار والآراء الاقتصادية الحديثة. فالتوزيع والانتاج في بلدان العرب لا يزال كما كان عليه قبل عصور عدة، اللهم إلا بعض التغير البسيط الذي حدث خلال الحرب ولضرورة الحرب فقط. وإذا بقي القوميون يهملون هذه الناحية الحيوية تاركين الأمر يسير وفق رغبات ذوي المصالح الخاصة فقد لا يثبتون كثيراً أمام هجمات اليساريين القوية. فالقومية يجب أن تستفيد من تطور الزمن الذي حصل في العالم، لا سيما في الناحية الاقتصادية لتستطيع إيجاد شعب منتج يفهم كيف يستفيد من انتاجه الاقتصادي ويزيد ثروة البلاد العامة، ويقدر ما عليه من الواجبات كما يستطيع أن يتمتع بحقوقه الكاملة.

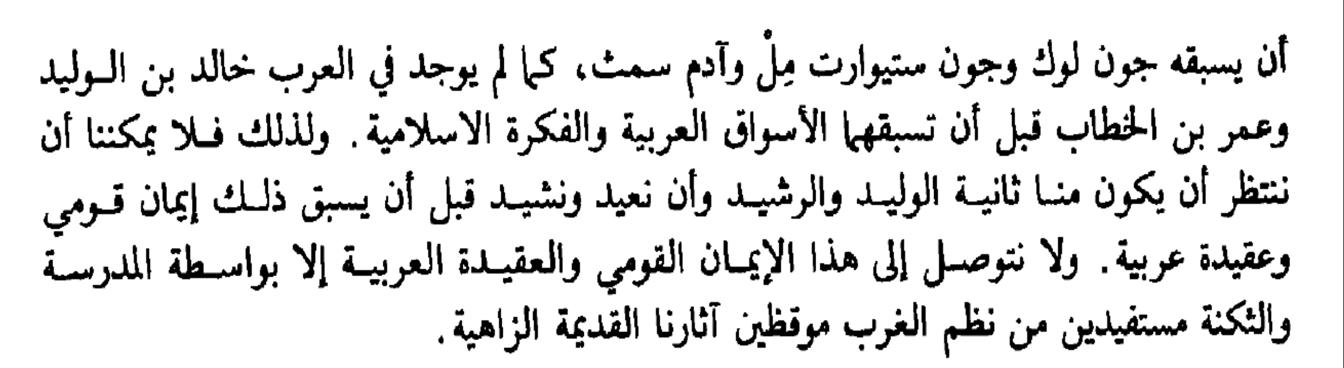
والفكرة القومية إنما هي فكرة انشائية مستمدة من خصائص الأمة وقابلياتها. ففي ضوء هذه الخصائص والقابليات يجب أن تضع لها منهجاً اقتصادياً ونظاماً زراعياً.

فالقومية تحارب البداوة والبطالة والاقطاعية، ولكنها تغيّر نظمها وفقاً للنظم العربية ومصلحة بلدانها.

والدعامة الرابعة التي يرتكز عليها بناء القومية العربية هي التمركز السياسي. فإلى زمن قصير كان الاتجاه العربي موحداً في هذا التمركز، لذلك دعي العراق قبل الحرب العراقية ببروسيا العرب. أما الآن، فقد زال هذا التمركز ولا نجد القوميين من العرب يحذون حذو القوميين الآخرين من تعيين هذا المركز القومي الذي يعتقدون فيه أنه سيحقق لهم غاياتهم القومية ليمركزوا جهودهم فيه.

إننا نشاهد إلى الآن أكثر الجمعيات القومية في البلدان العربية لا تملك فكرة واضحة عن مقر هذا المركز. فلولا بروسيا، مثلاً، لما كانت ألمانيا. فلا بد، إذن، من إيجاد مركز سياسي يسنده القوميون العرب كافة ويضعون انفسهم تحت تصرفه كما فعل الألمان في بروسيا.

أما الوسائل التي تتوسلها القومية العربية للوصول إلى هدفها بسرعة، فأهمها المدرسة والثكنة، فيجب على القوميين العرب أن يوحدوا هاتين المؤسستين لتخرّج لهم جيلاً جديداً مؤمناً بقوته وأهلية أمته للحياة. ولم يستطع الالمان الحصول على «بسمارك» و«مولتكه» قبل أن يسبقهما هيغل وكنط وفختة. كما أنه لم يمنح الفرنسيون نابوليون قبل أن يسبقه فيهم مونتسكيو وفولتير وروسو، ولم تستقر القومية الانكليزية لتتخرج لويد جورج وأمثاله من السياسيين قبل


أن يسبقه جون لوك وجون ستيوارت مِلْ وآدم سمث، كما لم يوجد في العرب خالد بن الوليد وعمر بن الخطاب قبل أن تسبقهما الأسواق العربية والفكرة الاسلامية. ولذلك فلا يمكننا أن ننتظر أن يكون منا ثانية الوليد والرشيد وأن نعيد ونشيد قبل أن يسبق ذلك إيمان قومي وعقيدة عربية. ولا نتوصل إلى هذا الإيمان القومي والعقيدة العربية إلا بواسطة المدرسة والثكنة مستفيدين من نظم الغرب موقظين آثارنا القديمة الزاهية.

القضية العربية في التاريخ الحديث

لما كان جيل في الأمم مسؤولاً عن حل مشاكله وإنجاز أعماله والسير بأمّته وفقاً لمقتضيات العصر الذي يعيش فيه، وجب على أبناء هذا الجيل من العرب أن يدرسوا الحالة التي هم فيها والصعوبات التي يلاقونها دراسة علمية مبنية على الواقع المحسوس ومستندة إلى المقارنة الصحيحة ليستطيعوا أن يتغلبوا على الصعوبات التي تواجهها أمتهم اليوم.

لقد مرت على الأمة العربية فترة ربع قرن من الزمن أو تزيد، وهي مثقلة بالمصائب والآلام، ورغم تضحياتها الكثيرة المستمرة لا زالت مشاكل هذا الجيل معقدة، بل تزيد تعقداً يوماً بعد يوم حتى أخذ الكثيرون من أبناء هذه الأمة يسأمون من حالة بلادهم ويتمنون لو تُهيّأ لهم الفرص ليرحلوا إلى المهجر أو إلى خارج هذا الوطن العزيز، على الأقل.

وإننا نفهم سر هذا السأم ومصدر هذا الضغط؛ فالأمة العربية كانت تابعة للدولة العثمانية وعاشت حقبة طويلة من الزمن في عزلة عن العالم، وخاضعة لسلطة غير عربية. وعلى الرغم من اتصاف السلطة العثمانية الحاكمة بالصفة الإسلامية، فقد بقيت البلدان العربية تشعر أن الحكم غريب عنها وعما ألفته في أيام عزها ومجدها.

والدولة العثمانية بوضعها الماضي كانت تغط في سبات عميق بالنسبة إلى الدول الأوروبية المجاورة لها والطامعة في أراضيها. ولم تستطع الدولة العثمانية أن تستفيد من النهضة الأوروبية رغم مكانتها السياسية آنذاك بل بقيت محافظة على القديم، فسبقها الزمن كما أنها لم تحاول اللحاق به.

فإذا كانت الأستانة مركز الامبراطورية العثمانية وأقرب الأقسام فيها إلى أوروبا بل هي جزء من أوروبا، لم تستطع الاستفادة من النهضة الأوروبية، فكيف إذن بالبلدان العربية التي

كانت تابعة للآستانة وتبعد آلاف الكيلومترات عن أوروبا.

إن وزر هذا التأخر لهذه الفترة التاريخية المهمة التي تزيد على الخمسة قرون يقع على عاتق الحكام العثمانيين الذين لم يكونوا من النضوج الفكري بحالة تجعلهم يقتبسون ما هو مفيد وضروري لبلادهم من هذه النهضة الأوروبية التي أصبحت أساساً لنهضات العالم كافة.

وقد لا نبرّىء بعض العناصر العربية آنذاك لأن عقليتها العربية المرنة كانت تدعوها لأن تؤثر في بعض الحكام الأتراك بقدر ما يسمح لها مقامها الرسمي أو على الأقل تحاول استغلال مركزها الرسمي لتفيد العربية أو لتحاول تسهيل انفصال البلدان العربية عن الإمبراطورية العثمانية، بل وجدنا العكس، إذ رأينا أن بعض العناصر العربية ساعدت الدولة العثمانية على محاربة كل حركة استقلالية في البلدان العربية لا سيما التي ظهرت في بعض الأقطار العربية التي كان يسمح لها مقامها الجغرافي بالإفلات من نفوذ الحكم التركي كاليمن وعُمان ونجد.

كما أن العناصر العربية ذات العقلية المرنة التي كان واجبها رغم وقوعها تحت سيطرة الحكام الأتراك أن تؤثر في عقلية العثمانيين، رأيناها تقترف ذنباً آخر بأن تأثرت هي نفسها بالتعصب العثماني فبدأت الحركات الدينية بين العناصر العربية لأول مرة في تاريخ الأمة العربية. فالأمة العربية لم يعرف عنها في حياتها أيُّ تعصّب ديني لرحابة صدرها ومرونة عقليتها وهذا ما سهّل لها إنشاء كيان عربي في فترة لم يعرفها التاريخ القديم إذ لم يذكر لنا تعصباً دينياً عند العناصر العربية، فنجد أن دولة بابل القديمة لم تحارب أحداً، إلا اليهود إذ طردتهم من أرض العراق لخبثهم وسوء خلقهم، ولما استقروا في بعض نواحي القدس، تلاعبوا ثانية وبدأوا يدسون فحاربهم البابليون ثانية، وسبوهم أسرى إلى العراق ولم يُسْمح لهم بالنزوح ثانية إلا بعد سقوط دولة بابل واستيلاء العناصر الغريبة وهي الفارسية على الحكم. كما أن الفراعنة وهم قبائل عربية لم يعرف عنهم أي تعصب ديني، فهم لم يحاربوا إلا اليهود أيضاً لأن مصر التي آوت اليهود وعطفت عليهم ضجرت منهم ومن ألاعيبهم وأخلاقهم، حيث لا يعرفون وفاء لعهد ولا حرمة لضيافة، لذلك فقد نبذتهم إلى خارج الأراضي المصرية، إلى صحراء سينا ليلاقوا فيها جزاء ما اقترفت نفوسهم الخبيثة.

أما العرب في الزمن الإسلامي، فلم يحاربوا أي عنصر أو دين اللهم إلا اليهود فقط، حتى أن عمر بن الخطاب حرّم عليهم دخول مهد العروبة الأول ليبقى مصوناً من خبثهم ودسائسهم ونفاهم من ايليا كما أبقى الأديان الأخرى كافة حرة، لذا كان يجب على العرب الذين ساهموا في حكم الأتراك أن لا يقبلوا بأن تحدث في بلادهم بعض النعرات الدينية وتكون سبباً مباشراً لدخول التأثير الأوروبي السياسي المستتر وراء حماية الدين وإن كان الذنب يقع في الدرجة الأولى على الحكام الأتراك الذين كانوا من الضعف بدرجة سمحت لبعض الدول الأوروبية القوية وذات النفوذ أن تحاول الدخول إلى ممتلكات الدولة العثمانية باسم الدين أو بحجة أخرى، وقد تم لها ذلك.

إن وزر هذه الفترة الطويلة، يجب أن لا يتحمله الرجال العرب الذين عاشوا في آخر

أيام الدولة العثمانية: بل بالعكس، فلبعضهم الفضل الأكبر في المحاولة التي قام بها، وهي إخراج البلاد من نفوذ الأتراك. وهذا الفضل سجله لهم التاريخ لأن الحركة الانفصالية التي قام بها العرب هي ذات قيمة تاريخية كبرى، نظراً لعقلية الجيل الماضي ومشاكله السياسية والاقتصادية والدينية.

ومهما انتقدت هذه الحركة وبحث في هفواتها، فهذا لا يقلل من قيمة العمل بل يزيده رونقاً وقوة لا سيما إذا قورن بغيره بالشروط والظروف والامكانيات نفسها.

إن هذه الفترة التي نعيش فيها والتي يعدّ جيلنا مسؤولاً عنها والتغلب على مشاكلها، قد بدأت في أوائل هذا القرن ـ أي القرن العشرين ـ ومبدأ القرن العشرين مهم لكافة الشعوب الحديثة إذ حدثت تطورات علمية وسياسية هامة أثّرت على مجرى الحضارة البشرية والسياسة العالمية. ومبدأ القرن العشرين مهم لنا نحن العرب بصورة خاصة لأن القضية الشرقية قد نضجت فيه ولم يبقَ للدول القوية إلا اقتسام الغنائم والميراث من الدولة العثمانية، بعد أن أصبحت تنتظر موت الرجل المريض في الآستانة، كما أنه يعدّ مبدأ محاولة انعاش للامبراطورية العثمانية قام بها نفر من شباب الأتراك وساروا فيها على طريقة تقليدية لا تلائم الزمن الذي قاموا فيه ولا نفسية الشعوب الأخرى التي تتكون منها هذه الامبراطورية وفي مقدمتها الشعب العربي.

فالشعب العربي الذي احتمل حكم الأتراك فترة طويلة من الزمن لم يستطع الخضوع لمطالب الاتحاديين الرامية إلى محو الطابع العربي من الوجود وإدماج الأمة العربية كاملة، بما فيها من حضارة وثقافة ومدنية، في النطاق التركي الضيق، الذي لا يتسع حتى للشعوب التركية وحدها.

عند ذلك حدثت الرجة العربية المنتظرة وبدأت النفوس تشعر بثقل الواجب الملقى عليها في مثل هذا التطور الجديد فطبيعة هذا التطور الجديد ووضع رجال العرب المفكرين الخاص أعطى حركتنا العربية طابعاً سياساً وأن الظرف القاسي الذي واجهه رجال العرب في البلدان العربية الخاضعة للدولة التركية، وفي الآستانة كان يتطلب أن تكون الحركة العربية شديدة الحذر، لذا وجدنا الحركة العربية فيهما تتخذ طابعاً سرياً أو أدبياً خوفاًمن الحكام الأتراك وعيونهم الكثر.

وأن الحالة التي كانت سائدة في أوائل القرن العشرين كانت تتطلب من العناصر العربية العمل السلبي، لأن الأمة العربية قررت الانفصال عن حكم الأتراك، فلا بد إذن لكل العناصر المفكرة من العرب أن يستخدموا الطريقة السلبية، وهي عدم التعاون مع رجال الحكومة العثمانية بل يقومون بمحاولة عرقلة مشاريعها «التتريكية» في الأقطار العربية. وبما أن الدولة التركية كانت ضعيفة فلم يكن العرب بحاجة إلى جهد إيجابي كبير لمقاومتها، إذ كانت السلبية وحدها كافية للوصول إلى الغاية، وكل ما كانت تحتاجه هذه الطريقة من الكفاح إنما هو رجال مخلصون وشجعان يستطيعون أن يجازفوا ويقفوا في وجه رجال الاتحاد والترقي الذين استخدموا القسوة والظلم في إخضاع العرب.

وقد استطاعت الأمة العربية إيجاد الرجال الفرديين الضروريين لهذه الحركة العربية. ولذلك فقد قامت كثير من الجمعيات السرية والعلنية بواجبها القومي بالنسبة إلى ذلك الزمن وطرقه المألوفة. ولما أعلنت الحرب العالمية الأولى اندفع بعض العرب إلى الميدان، لتحقيق مطاليب الأمة القومية، وساروا إلى ساحة القتال العسكري أو الكفاح القومي، وقدمت فئة من خيرة أبناء الأمّة من التضحيات ما يتناسب وحرمة الأمة العربية وسمعتها التاريخية، فلم تخشَ هذه الفئة جور الأتراك ولا ظلم ساستهم وقوّادهم، كما لم ترعبها المشانق التي علّقوا عليها زهرة شباب العرب ورجالهم في بيروت ودمشق، ولم تعبأ بقسوة السجون التي حشدوا فيها العدد الكبير من رجال أمتنا.

ولما انتهت الحرب بانتصار الحلفاء على الأتراك، لم ينل العرب ما كانوا يصبون إليه، لأن الحلفاء لم يكونوا حسني النيّة معهم، ولا صادقي العهود. ولذلك، فقد استمر الكفاح السلبي في الأقطار العربية كافة، وبقي كثير من رجال العرب الذين ساهموا في الكفاح القومي مستمرين في نضالهم مع المستعمرين الذين كانوا أقوى عدّة من الأتراك، وكانت دولهم أكثر حنكة سياسيّة وخبرة من الدولة العثمانية السابقة. كما أن الأمة العربية رغم وعيها القومي المعلوم قامت ببعض واجبها من الكفاح السلبي. ودامت هذه الفترة ربع قرن، جاهد فيها رجال العرب منفردين، كلٌ في بلاده الضيّقة، وإن كان يعتمد في بعض الأحيان على مساعدة بعض أقسام البلاد العربية وعطف الأمة العام حتى حانت الفرصة، فرصة الحرب العالمية الثانية، فكان من حسن حظ الأمة العربية أن وجد على رأس الكفاح القومي في بعض الأقطار العربية، لا سيما في سوريا ولبنان، موطن الجمعيات السرية في عهد العثمانيين ومنبع الفكرة القومية لهذه الفترة التاريخية نخبة من المكافحين القوميين وفي مقدمتهم رئيس الجمهورية السورية، الذي ذاق عذاب الأتراك، وسجّل له في تاريخ هذه الأمة صفحات لامعات، في الكفاح القومي والتضحية الوطنية، على رأس الحركة التحريرية الجديدة فأدار حركة الكفاح في الحرب الثانية بحزم وإقدام، وسجّل نصراً جديداً في نيل استقلال البلاد استقلالاً لم تحصل عليه كثير من الدول العربية التي هي أكثر عدداً من سوريا وأقوى شكيمة منها.

وقد أصبحت فرصة العرب الآن أن يستثمروا هذا النصر، فيحافظوا عليه، ويستخدموه في دفع الأمة العربية نحو هدفها القومي العام، وأصبح واجب الشعب العربي، في هذه البقع العربية المستقلة، الانتقال من الحالة السلبية الماضية إلى الحالة الإيجابية التي يتطلبها هذا الوقت والظرف، وذلك بأن يبدأوا دور الإنشاء والتكوين، لا سيما وأن نظام الحكم في هذه المنطقة العربية يسمح بذلك ويسهله لأن البلاد تتمتع بقيادة شعبية متحررة من القيود العائلية وتقاليدها وتكاليفها التي تقف دون نمو الأمم، فهذه فرصة كبيرة لن تسنح ثانية، فعلى الشابات والشباب بل وجميع الهيئات الاجتماعية أن تحاول الانتقال من الحالة السلبية إلى الحالة الإيجابية. ومثل هذا الأمر ليس بالأمر السهل ما لم تتضافر الجهود عليه، لأن انتقال الأمم من حالة الحرب إلى حالة السلم وبالعكس، يتطلب جهوداً مشتركة ومقدرة حكومية وشعبية.



وكلما كانت الأمة حية والقيادة صالحة، قصرت فترة الانتقال وهذا ما يجب أن يعمل له كل مخلص في هذه البلاد وبقية الأقطار العربية الأخرى، والتاريخ يشهد للعرب بهذه المقدرة، وسجّل لآبائنا مثلَ ذلك. فمن واجبنا أن نجعله يسجل لنا مثل ما سجل للآباء والأجداد، فها أن التاريخ قد أمسك اليراع وفتح الصفحة الخاصة بالأمة العربية في هذه المعركة القومية من أجل فلسطين، وبدأ رجال الأمة العربية يعلنون عزم الأمة الأكيد على الكفاح حتى النصر الأخير، فَلْنَسِرْ في هذا الطريق لننقذ شرف العروبة وحرمة البلاد، ولنجعل التاريخ يسجِّل في صفحة فلسطين لأجيال القرن العشرين من العرب مثلما سجّل لأجيال القرن الثاني عشر في هذه الصفحة نفسها، وما أشبه الليلة بالبارحة.

محمد مُبدع القومية العربية

في القرنين الخامس والسادس كان العالم المتمدن على قدر كبير من الفوضى. لأن العقائد الدينية التي كانت تعين على قيام الحضارة كانت قد انهارت ولم يكن ثمة ما يعتد به مما يقوم مقامها. وكان يبدو إذ ذاك أن المدنية الكبرى التي تكلّف بناؤها جهود أربعة آلاف سنة مشرفة على التفكك والانحلال وأن البشرية توشك أن ترجع ثانية إلى ما كانت عليه من الهمجية، فالقبائل تتحارب، وتتناحر وليس هناك نظام أو قانون. أما النظم التي خلّفتها المسيحية فكانت تعمل على التفرقة أكثر مما تعمل على الوحدة، فأصبحت المدنية كشجرة ضخمة متفرعة امتد ظلها إلى العالم كله، واقفة «تترنح» وقد تسرب إليها العطب حتى اللباب، وبين مظاهر هذا الفساد الشامل ولد الرجل الذي وجه العالم جميعه.

هذا ما كتبه العالم دينسون عن محمد في كتابه باللغة الانكليزية «العاطفة أساس المدنية».

فما أشبه القرن العشرين بالقرن السادس، وما أحوج العالم في يومنا هذا إلى من ينقذه من مصيبته الحالية كما أنقذه محمد أيام محنته الأولى. وما أحوج العرب إلى من يوجههم لخدمة البشرية كما وجّههم محمد.

إننا نحتفل اليوم بذكرى ميلاد محمد لا لنظهر عظمته وإجلاله فالعالم يشهد له بذلك ويقدره، وأتباع محمد يملأون الأرض شرقاً وغرباً، وفي كل بقعة من بقاع الكرة الأرضية يقوم لهم مسجد ومساجد تعلن كل يوم خمس مرات فضل محمد على البشرية جمعاء.

إننا نجتمع اليوم كما نجتمع في كل عام في مولد محمد لا لنعتز به فقط لأنه عربي ولأنه



أوجد أمة وكوّن تاريخاً، وجاء برسالة، فهذا ما يعرفه القاصي والداني، المؤمن وغير المؤمن، العدو والصديق.

إننا لا نجتمع لهذه الغايات فقط، بل لشيء أهم من هذا وأعظم. نجتمع اليوم لنقتبس شيئاً من روح محمد علَّ ذلك يساعدنا على حل مشاكلنا التي نواجهها اليوم والتي استعصى علينا حلها. نجتمع لنسترشد بذلك الصراط المستقيم الذي وجّه محمد إليه آباءنا وأجدادنا، فدفع بهم في فترة قصيرة إلى أقاصي الشرق وأواسط الغرب وخلّد أمتهم بكيان متين ونظام دقيق لم تستطع الأيام رغم مصائبها الكثيرة وعواصفها الشديدة، زعزعته أو القضاء عليه.

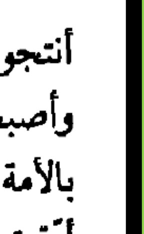
فالعرب يواجهون اليوم محنة كبرى في تاريخهم، محنة تتطلب منهم القوة والإسراع في العمل، محنة نأمل أن تكون فاتحة عهد جديد للعرب والبشرية كما كانت محنة العالم والعرب أيام ظهور محمد. فوجه الشبه بين حالة العرب اليوم وحالتهم أيام ظهور محمد هو الذي يجب أن يدفع كل مفكر منا ليدرس حياة محمد لنستعين بذلك على دفع الخطر المحدق بنا، كما دفع محمد الأذى عن آبائنا وأجدادنا.

لقد نشأ محمد في بيئة كانت آنذاك مركز التفكير العربي وملتقى الزعماء والمفكرين، فخالط الزعماء والعلماء وحضر مجالس الشورى والأسواق العربية والمجتمعات العامة وهو شاب، فرأى أكثر قادة قومه وسمع بأذنه آمالهم وآلامهم، وشاهد بنفسه طريقة نقاشهم ونوع تفكيرهم، فشارك قادة القبائل العربية شعورها وهو صغير، واشترك في حل مشاكلها وهو شاب فشب عربياً في شعوره وإحساسه، وعبقرياً في رأيه وتفكيره. وأصبح لا يشغله أمر في هذه الدنيا إلا إنقاذ أمته وقيادتها في خدمة العالم والبشرية.

ومن أهم الحوادث التي أثّرت في نفس محمد وهو يافع، أخبار حرب ذي قار، فقد توترت الحال بين الشعب العربي في العراق، وحكامه الأعاجم، وانتهى هذا التوتر بحرب انتصر فيها العرب لأول مرة بعد فترة طويلة من الخضوع والاستبداد. فلم يفخر محمد بأكثر مما فخر بهذا الانتصار العربي في العراق حتى قال: اليوم انتصف العرب من العجم. فأخبار العراق قد أيقنته بأن العرب أمة لها خصائص منفردة تفوق بها غيرها من الأمم المعاصرة، فما هو السر في تفرُّق كلمتها وخضوعها لسلطان أجنبي لا يمتاز على العرب بشيء. ومما آلم محمد وآذاه ما شاهده بنفسه في سفراته إلى الشام. من احتقار الروم للعرب رغم حاجتهم إليهم، فقد كان الحكام الصغار من الأعاجم يقابلون ساسة العرب القادمين من الحجاز باستهزاء واحتقار.

لقد فكّر محمد كثيراً في سر هذا الضعف العربي وطريقة القضاء عليه، وهذا الشعور هو الذي أقضّ مضجعه ونغّص عليه عيشه وزاد في كربته وآلامه، وأخيراً كشف السر، ووقع على موطن الداء وعرف الدواء.

إنه داء واحد أصاب العرب فأضعفهم، واستولى عليهم ففرّقهم حتى أصبحوا رغم ما



أنتجوه للعالم من حضارات كبيرة في العراق ومصر واليمن خاضعين لمن هم أقل منهم شأناً وأصبحوا بيد الروم والفرس يوجهون كل قسم منهم ضد القسم الثاني. وبدأ التاريخ يهزأ بالأمة العربية وكثرة عددها، وسعة أرضها، وسخر منها صاحب السلطة فيها، فوصفها بأنها أمّة ترعى الإبل، وتأكل اليرابيع، وهي كلمة لا يقبل بها أقل بدوي في الصحراء.

لقد كان سر ضعف العرب هذا، فردية طاغية، وحس قبلي مستحكم. وقد شارك محمداً في ذلك كثيرون من أبناء العرب وقادتهم، ولكن محمداً وحده هو الذي خصص نفسه لمحاربته وإزالته. ومحمد نفسه هو الذي وهب نفسه لهذه الأمة، وللعالم أجمع، ومحمد وحده هو الذي استطاع إزالة الضعف وإحلال القوة محله، وهذا هو فضل محمد على العرب والبشر. فليس الفضل أن يعرف الداء والدواء، وإنما الفضل أن يسهر الطبيب على المريض، ويصرف جهده وروحه لإنقاذه من براثن الموت ومنحه الحياة. وهذا ما صنعه محمد وما يجب أن نستفيده نحن من ذكرى ولادة محمد.

إن حياة محمد مملوءة بالقوة والعبر، فقد كان محمد مثلاً حياً لأبناء قومه قبل الرسالة وبعدها، حتى طأطأ له الرأس المسلم والمشرك وانحنى اجلالاً لصفاته وخلقه كل من عرف محمد. وصفات عربية أصليه إذ جرَّد نفسه مما ابتلى به أبناء قومه من مرض الفردية أو العائلية أو القبلية وسيطر على نفسه، ومن استطاع أن يسيطر على نفسه، استطاع أن يسيطر على غيره، ومن استطاع أن يكوّن انسجاماً بين فكرته وعمله، استطاع أن يحقق الفكرة وينشر الرسالة.

لقد جرّد محمد نفسه من الفردية، فأصبح صدره مفتوحاً لسماع كل رأي حتى أنه لا يبت في أمر إلا بعد استشارة من يعتمد عليه من صحبه وهو الرسول المطاع. وابتعد عن الحس العائلي أو القبلي، فأصبح لا فرق عنده بين بني هاشم، أو قحافة، أو أميّة، فكل من اعتنق الفكرة وآمن بالرسالة فهو المستحق للعناية المحمدية وللعطف النبوي، وكل من ابتعد عن ذلك كان بعيداً عن محمد ولو كان عمه أو أبناء عشيرته الأقربين: ﴿إن أكرمكم عند الله اتقاكم﴾(1) فبعد أن تم له ذلك درّب صحبه عليه، فنظّم أمرهم ورتّب العبادة وجعلها تثبت فيهم روح الجماعة وتجعلهم متساوين، فالصلاة حيث يقف الكل في صف واحد منتظم وراء إمام واحد. والزكاة التي يجبر المسلم على أدائها لا كصدقة بل كضريبة، كانتا عاملين من عوامل روح التنظيم الاجتماعي والاقتصادي الذي تُبنى عليه أنظمة الدول وحياة الشعوب. وهذا التنظيم الذي يوفق بين الناحية الخلقية والناحية المادية، هو الذي كوّن القوة في الإسلام منذ نشأته الأولى، وهو الذي ربط نفوس العرب بعضها ببعض. لقد سهر الرسول الليالي الطوال يدرب صحبه المسلمين على هذا النظام، وقد بقي عدد المسلمين قليلاً، لأن مثل هذا النظام الاجتماعي والاقتصادي لم تألفه العرب، وإن ألفته فلا تستطيع تطبيقه بسهولة، لما فيه من روح الجماعة وفكرة الوحدة والطاعة المطلقة.

---

(1) القرآن الكريم، «سورة الحجرات،» الآية ١٣.



وماذا يهم محمد العدد الكبير الذي لا ينسجم في نظام ولا يخضع إلا لعادات فردية لا قيمة لها في حياة الأمم ﴿كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن اللّه﴾(٢). فالفئة المنظمة هي التي ستفوز في المعركة وإن قلّ عددها، فخير لمحمد أن يحصل على فئة منظمة قليلة العدد من جماهير لا تقاد ولا تخضع. كما أن قيادة الجماهير تتطلب فئة من الناس متماسكة في ما بينها واعية لروح النظام الذي تسير عليه، خالية من الادران والشوائب حتى تستطيع تحمُّل المسؤولية وتتقدم الناس في المعركة عن رضى وعقيدة.

وهذا ما سعى إليه محمد، وهذا ما ناله وحصل عليه. فعلى الزمرة الأولى المختارة كان يعتمد محمد في إدارة الأمر، وفي العشرة المبشرة كان مركز الثقل في الأعمال الكبيرة كافة وإزالة الصعاب وحل المشاكل.

وأول مظهر للتنظيم الثاني، وهو التنظيم السياسي الذي قام به محمد، فهو القيام بالهجرة والخطوات الأولى التي اتخذها لتنفيذ هذه الخطة. لقد كان يعلم أنه جاء بدين فيه انقلاب اجتماعي وسياسي واقتصادي، دين يكون أساساً لدولة، ونظاماً لأمة، فهو لا يختص بقبيلة ولا ينفرد بهيئة اجتماعية ولا يقتصر عل ناحية واحدة من الحياة، فقام بالهجرة لا خوفاً من قريش، فلم يُعرف لا عن محمد ولا عن صحبه خوف أو وجل، ولكنها خطة لا بد منها ليخرج الإسلام من محيطه الضيق إلى العالم الفسيح. فما كاد يصل إلى يثرب حتى ظهر عمل محمد التنظيمي. فلم يصبح عمله مقتصراً على إقامة شعائر الدين، وتفهيم المسلمين أمر الدعوة، إذ أن هذه المرحلة قد انتهت، وإنما قام بتنظيم الكيان السياسي والعسكري، ويثرب كانت ملتقى الديانات وفيها نزعات قبلية مستحكمة ومشاكل عائلية مستعصية.

لقد شعر محمد بكل ذلك، فنظم له خطته وأحكم أمره. شعر محمد في يثرب بعبء القيادة العامة، لأنه أصبح قائداً عسكرياً، وزعيماً سياسياً، ومصلحاً اجتماعياً، ومنظماً مدنياً، إلى جانب عمله الديني كمرشد وواعظ ومقيم لشعائر الدين. وهذه المسؤولية الكبرى والمتشعبة، هي التي أخضعت النفوس لمحمد في يثرب، فقد أظهر كفاءة ومهارة، واستطاع حل مشاكل يثرب وإحلال السلام بين قبائلها المتنازعة، ودياناتها المتنافرة، وربط الجميع بمعاهدات سياسية دلت على بعد نظر محمد وتفوقه على أهل يثرب، فقد نظم هذه المعاهدات بحيث أمن تنفيذ الخطة التي جاء لتنفيذها، وهي إعلان الحرب على قريش واحتلال مكة مركز الديانات العربية، وملتقى العشائر والقوافل، إذ كان يعتقد أن احتلال مكة هو الذي سيخضع العرب لهذا الدين، وهو الذي سيوحد كلمتهم ويلم شملهم، وهذا ما قام به بعد أن تيقن من إيمان المهاجرين والأنصار، واطمأن إلى اتحادهم وامتزاجهم. فقد آخى بينهم مع أنهم كانوا من عائلات قريش وقبائلها كافة، وأصبحوا قوة قوية في انسجامها وإيمانها. وقد تم لمحمد ذلك، فقد احتلّ مكة، فدانت له القبائل وبدأت تدخل في دين اللّه أفواجاً أفواجا.

وما كاد يشعر بلذة النصر بجمع كلمة العرب في الحجاز وبانضمامها في صفوف

---

(٢) المصدر نفسه، «سورة البقرة»، الآية ٢٣٩.



الإسلام، حتى سارع فأعلن عزمه على محاربة الروم والفرس، وما دام قد ملك أمر العرب فلا يخشى أية قوة أخرى. فحارب الامبراطوريتين دون أن يعبأ بما عندهما من جيوش جرارة ومعدات حربية. فالإيمان الذي ملأ قلوب المسلمين والنظام الذي ربطهم كفيل بأن يقوض دعائم هاتين الامبراطوريتين اللتين أنهكتهما الخلافات والخصومات وأكلت قلبيهما المادية وحب الدنيا، وقد تم له ما أراد ونال كل ما كان يتمناه، ولما عاجلته الوفاة وهو وسط هذه المعركة التاريخية الكبرى لقي الله راضياً مرضياً، مطمئناً على أمته لأنه ترك وراءه أمّة موحدة وديناً قويماً وأصحاباً هضموا الفكرة ووعوا الدين فأصبحوا قادرين على إدارة المعركة من بعده وتحقيق الغاية التي كافح من أجلها وهي إعلاء كلمة الله وإخراج هذه الأمة للعالم، لها كرامتها وحرمتها ولها مقدرتها وميزتها في خدمه البشر والإنسانية.

فيا زعيم العرب ونبي الإسلام، إننا نتضرع إليك في يوم مولدك أن تطل بروحك الطاهرة على أبناء أمتك في صراعهم الحالي فتدعو الله أن يغفر لهم ويوفقهم، فهم يدخلون هذه المعركة الحاسمة من تاريخهم الجديد بالروح الفردية نفسها المشبعة بالأنانية التي حاربتها وقضيت عليها. ويتمسكون بالنظام القبلي الذي سموه قانون الدول المحلية حتى أصبح العربي لا يفرق عن الأعاجم في نظر هذه القوانين، وقد تأصل فيهم رغم حداثة عهده وأجنبية مصدره ولم يجرؤ أحد من أبنائك على تغييره، رغم اجتماعاتهم ومقابلاتهم مع أنك كنت أول من حاربه وقضى عليه. إننا نتوسل إليك أن تدعو لنا ربنا أن يرفق بأبناء قومك اليوم كما كنت تفعل بدعائك الأول: «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون».

لقد كنت يا زعيم العرب ونبي الإسلام أرحم بآبائنا وأجدادنا منهم بأنفسهم، فكن رحيماً بنا كما كنت بآبائنا لأننا ضللنا الطريق التي رسمتها لنا، وابتعدنا عن النظام الذي أوجدته فينا، ونبذنا الوحدة التي منحتنا إياها. إننا نرجوك أن لا تؤنبنا لأننا ضعفاء، فإن تأنيب من هو دونك يكاد يقضي علينا، فكيف بتأنيب زعيم العرب ونبي الإسلام.

